الدّرس العرفانيّ من اللّسانيّات إلى الإنسانيّات

سرور الحشيشة

جامعة صفاقس-كلّيّة الآداب والعلوم الإنسانيّة- تونس hachichalinguistique@gmail.com

التقديم: ٢٠٢٣/٥/١٥ القبول: ٢٠٢٣/٦/١٨ النشر: ٢٠٢٣/٩/١٥

Doi: https://doi.org/10.36473/ujhss.v62i3.2234

This work is licensed under a Creative Commons Attribution 4.0 International Licenses

الملخّص:

نقدّم قراءة تأليفيّة في واقع ما يمكن أن نسمّيه باللّسانيّات العربيّة. ونركّز على خصائص الدّرس اللّسانيّ النّفسيّ بشقّيه التّوليديّ والعرفانيّ. فقد حقّق هذا الدّرس نتائج معرفيّة ومنهجيّة مكّنته، في تقديرنا، من أن يكون حلقة تعبر منها العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة العربيّة إلى النّموذج العرفانيّ باعتباره مشروعا علميّا كونيّا. ونتناول بعض النّماذج البارزة الّتي تقاطع فيها البحث بين اللّسانيّات العرفانيّة والإنسانيّات، وذلك من قبيل نظريّة الاستعارة التّصوّريّة. فنعتمد نموذج لايكوف في توظيف مبادئ هذه النّظريّة في قراءة وقائع وخطابات تاريخيّة كان لها آثار اجتماعيّة وسياسيّة واقتصاديّة عميقة على المجتمع الإنسانيّ. وفي ضوء ذلك نشير إلى نماذج عربيّة من استثمار الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ في مقاربة ظواهر الإنسان.

الكلمات المفتاحية: عرفان، علوم عرفانيّة، لسانيّات عرفانيّة، إنسانيّات، استعارة تصوّريّة.

Cognitive Lesson from Linguistics to Humanities

Sourour Hachicha

Sfax University-Faculty of Arts and Humantities, Tunisia hachichalinguistique@gmail.com

Abstract:

In this paper we provide a synthetic reading of the reality of what we might call Arabic linguistics. We focus on the characteristics of the psycholinguistic lesson with its generative and cognitive parts. This lesson has yielded cognitive and methodological results that-in our estimation-have enabled it to serve as a link from which Arab social and human sciences cross into the cognitive paradigm as a universal scientific project. We're dealing with some prominent instances in which research is intersected between cognitive linguistics and humanities such as the conceptual metaphor theory. We adopt the Lakoff model of using the principles of this theory to read historical facts and discourses that have had profound social, political and economic impacts on the human community. In view of this, we refer to Arab instances of investing the cognitive linguistic lesson in the approach to human phenomena.

Keywords: cognition, cognitive sciences, cognitive linguistics, humanities, conceptual metaphor.

مقدّمة:

ما انفكّت اللّسانيّات تشهد تحوّلات منهجيّة جذريّة واكبت المنعطفات الكبرى الّتي خرجت بها المعرفة الكونيّة من طور البنيويّة structuralism والسّلوكيّةbehaviorism إلى الطّور النّفسيّ ممثّلا في "العِرْفَانِيَّة"cognitivism. ونسعى في هذا البحث إلى قراءة ملامح الثّورة المعرفيّة النّفسيّة وأثرها في الفكر اللّسانيّ. فنتبيّن خصائص المنهج في المباحث اللّسانيّة النّفسيّة بالقياس إلى ما كان سائدا من المناهج البنيويّة. وننطلق في ذلك من معاينة المنهج العلميّ في النّظريّة التّوليديّة باعتبار دورها الرّائد في الخروج بالبحث اللّسانيّ من مسالك الفكر اللّسانيّ التّقليديّ إلى مسالك العرفان cognition والعودة بالنّحو إلى نواته العصبيّة الأولى في الدّماغ. ثمّ نعاين خصائص المنهج في اللّسانيّات العرفانيّة انطلاقا من الإطار النّظريّ العامّ لحقل العلوم العرفانيّة. ونبيّن ملامح الدّرس اللّسانيّ العربيّ المعاصر والشّوط الّذي قطعه ليندرج في المشروع العلميّ العرفانيّ أو ما يسمّى بالنّموذج العرفانيّ cognitive paradigm. وندرس من خلال مبحث الاستعارة التّصوّريّة conceptual metaphor أثر الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ في مقاربة الظّاهرة الإنسانيّة. فنعتمد نموذج لايكوف Lakoff باعتباره نموذجا رائدا في توظيف نظريّة الاستعارة التّصوّريّة في تحليل أحداث تاريخيّة معاصرة بارزة كان لها أثر عميق على المجتمع الإنسانيّ عموما والمجتمع العربيّ خصوصا. ونثنّي بنماذج من اللّسانيّات العربيّة احتذت هذا النّموذج في تحليل الاستعارات المستعملة في أنماط من الخطاب العربيّ ومعرفة ما لصناعة الاستعارة في الخطاب من تأثير على حياة النّاس أفرادا وجماعات.

I- ملامح الثّورة النّفسيّة في الفكر اللّسانيّ:

I-١ نظريّة النّحو التّوليديّ، المنهج الدّاخليّ وترقّي الكفاية التّفسيريّة:

تعتبر مسايرة الدّرس اللّسانيّ البنيويّ للمبادئ السّلوكيّة في علم النّفس طورا من الدّراسة العلميّة للّغة واكبته تصوّرات وفرضيّات ومناهج مثّلت الاتّجاه السّلوكيّ-البنيويّ في نظريّات اللّغة وعلم النّفس واكتساب اللّغات وتعليمها. وتمثّل النّظريّة التّحويليّة التّوليديّة Transformational-Generative ثورة في مجال البحث اللّغويّ بمختلف فروعه ساهمت في انتقال دراسة اللّغة إلى طور نفسيّ جديد يقوم على تصوّر مغاير للّغة وعلاقتها بالكائن البشريّ المتفرّد بها. وما انفكّ التّفاعل بين مختلف هذه الحقول المعرفيّة يجعل المعالجة في الواحد منها متعدّدة الاختصاصات على نحو مكّن البحث اللّسانيّ من تقديم أجوبة للكثير من القضايا النّظريّة والتّجريبيّة على قدر عال من الكفاية الوصفيّة descriptive adequacy والكفاية التّفسيريّة explanatory adequacy. وقد طرحت اللّسانيّات في سياق هذا التّلاقح المعرفيّ أسئلة جديدة دلّت الأجوبة عليها على ولادة فرضيّات وقضايا لم تكن مطروحة في البحث اللّسانيّ من قبل. وتدور هذه الفرضيّات عموما في فلك أطروحة كبرى هي ما عرف في الأدبيّات التّوليديّة بـ"النّحو الكلّيّ" أو "الكونيّ" Universal Grammar، وما يتّصل بها من مسائل تتعلّق بهندسة النّحو وعلاقتها بالذّهن وما تبيّن من منزلة المعجم في هذه الهندسة ونظام مكوّنات النّحو باعتبار الأولويّة وطريقة اشتغال هذه المكوّنات بوصفها أنظمة ينبني عليها النّظام الكلّيّ للملكة اللّغويّة.

وتعدّ اللّسانيّات التّوليديّة اليوم من أبرز النّماذج الّتي أثبتت كفايتها التّفسيريّة والتّجريبيّة منذ النّصف الثّاني من القرن العشرين. بل إنّ الكثير من النّماذج الّتي تلتها قد جاءت من أثر الثّورة الّتي أحدثها النّموذج التّوليديّ نفسه. لقد اتّجه تشومسكي Chomsky في دراسة اللّغة إلى المنهج الغاليليّ Galilean الّذي يقوم على ثلاثة مبادئ أساسيّة. الأوّل هو مبدأ التّجريد. وهو أن يستند البحث إلى بناء نماذج مجرّدة تقوم على أمثَلَة idealization الوقائع اللّغويّة الّتي بها تحقّق النّظريّة غاياتها التّفسيريّة. ومن مظاهر التّجريد كذلك استقلال المبادئ التّفسيريّة عن الوقائع المدروسة. فهذه المبادئ هي تعميمات تجريبيّة تختزل عددا من التّعميمات الجزئيّة والقيود التّحتيّة وتوحّدها في نسق تجريديّ استنباطيّ واحد. والثّاني هو أن تكون النّماذج المجرّدة ذات طبيعة رياضيّة. (Chomsky, Aspects de la Théorie ١٩٧١ : 86-90) Syntaxique، وثالث هذه المبادئ هو الطّواعية الإيبيستيمولوجيّة. ويتّصل هذا المبدأ بالعلاقة بين الكفاية التّجريبيّة والكفاية التّفسيريّة للنّموذج. فالنّموذج التّوليديّ يقبل تعارض النّظريّة مع التّجربة ويقبل احتمال ألاّ يكون لبعض الظّواهر تفسير أو يتعارضَ تفسيرها مع ما تثبته الحجّة تجريبيّا. (الفاسي الفهري، اللّسانيّات واللّغة العربيّة: نماذج تركيبيّة ودلاليّة، 2000، ج١: ٢٣-٣٢) (Al-Fessi Al-Fehri, Semantics and Arabic Language: Syntactic and Semantic instances, 2000, V1: 23-32) وقد اتّجهت المقاربة النّفسيّة للظّاهرة اللّغويّة إلى تمثيل المعرفة اللّغويّة عند المتكلّم بوصفها معرفة ذهنيّة والتّعرّف إلى الطّرق الّتي بها يكتسب المتكلّم اللّغة. فتحوّل البحث اللّغويّ من النّظر إلى اللّغة بوصفها ملفوظات وعيّنات كلاميّة إلى النّظر إليها بوصفها حالات ذهنيّة وأنساقا عرفانيّة محلّها الدّماغ. وتسعى النّظريّة اللّسانيّة إلى تفسير الطّريقة الّتي بها يكتسب المتكلّم بلغة مّا معرفته بتلك اللّغة. وهو ما عرف عند تشومسكي بـ"اللّغة الباطنة" Internal language. وتنتج هذه المعرفة عن قدرة competence تتمثّل في النّظام اللّغويّ العرفانيّ الّذي يولّد أوصافا بنيويّة لا حدّ لها، وهي قدرة كامنة في الذّهن/ الدّماغ brain/mind. وهذا النّحو الملكة هو عبارة عن حالة بدء initial state تمثّل القدرة على اكتساب اللّغة. وهذه الحالة الأولى هي حالة فطريّة تتمثّل في جملة الآليّات الوراثيّة الكامنة في الاستعداد الفطريّ للكائن اللّغويّ.

وبينما يكون النّحو الكلّيّ الملكة اللّغويّة في تلك الحالة الفطريّة الأولى يكون النّحو الخاصّ تلك الملكة وقد تفاعلت مع التّجربة اللّغويّة والمحيط الاجتماعيّ. فالكلّيّ هو المبادئ الثّابتة المشتركة بين البشر على اختلاف لغاتهم. والخاصّ هو المقاييسparameters التّي تتحقّق بها المبادئ عند اشتغال الملكة وتفاعلها مع الوضعيّات الكلاميّة المتاحة. وتعدّ ثنائيّة المبادئ والمقاييس principles and parameters من الأسس الّتي قامت عليها النّظريّة التّوليديّة، وهي توجّه دراسة اللّغات الطّبيعيّة إلى ما هو ثابت كونيّ من المبادئ وما هو مختلف متغيّر ممّا تتّخذه المقاييس من القيم الخاصّة بنحو مّا. فيكون لكلّ مبدإ وسيط أو مجموعة من المقاييس هي عبارة عن القيم الخلافيّة الّتي يتحقّق بها المبدأ في كلّ لغة. وقد اندرجت نظريّة العمل والرّبط Government and Binding ضمن ما عرف في الأدبيّات التّوليديّة والعرفانيّة بالمنظوميّة modularity. فالنّحو كالذّهن ذو طبيعة منظوميّة modular. والذّهن نسق من الملكات أو المنظومات المتفاعلة في إطار برنامج جينيّ معقّد. (انظر الزّنّاد، نظريّات لسانيّة عرفنيّة، ٢٠١٠: ٥٣-٥٤)

(Zannad,Cognitive Linguistic Theories, 2010 : 53-54) ويجري التّصافح interface بينها عن طريق عدد من المبادئ الّتي تتحكّم في اشتغالها وتواجهها. وهو ما يفسّر حاجة اللّسانيّات إلى العصبيّات واستفادتها منها في بلورة الأطروحات اللّغويّة– العصبيّة من قبيل اعتبار النّحو مكوّنا ذهنيّا عصبيّا. وتقوم دراسة الظّاهرة اللّغويّة في المقاربة المنظوميّة على ما تفسّره المبادئ والقيود التّي تندرج تحت مختلف الأنساق والأنظمة الفرعيّة الّتي يمثّلها النّموذج. فيكون اشتغال هذه الأنساق والأنظمة في مقاربة منظوميّة قائما على ما بينها من التّفاعل والتّقابل. (انظر Chomsky, La Nouvelle Syntaxe, 1987, Présentation d'Alain Rouveret) ويعدّ البرنامج الأدنويّ Minimalist Program أقرب النّماذج التّوليديّة إلى النّظريّات العرفانيّة. بيد أنّ الأدنويّة صيغة للرّبطيّة نفسها، إذ هما جميعا طور واحد يمثّل نموذج العمل والرّبط صيغته المنظوميّة الموسّعة، ويمثّل البرنامج الأدنويّ صيغته الأدنويّة المبسّطة الّتي بلغ بها المنوال كفايته التّفسيريّة.

I–٢ اللّسانيّات والمشروع العلميّ العرفانيّ:

العِرْفَان مفهوم ترتبط ماهيته بالدّماغ. وهو نتاج الدّماغ ووظيفته. وقد مرّ تعريف العرفان بأطوار منها أنّه عرّف خلال الطّور الحوسبيّ computational بأنّه معالجة المعلومات في الذّهن وكلّ ما يجعل الكائن قادرا على السّلوك الذّكيّ من نحو الفهم والإدراك وحلّ المشاكل. وقد ركّز الطّور التّرابطيّ على صلة العرفان بالدّماغ والبيئة الّتي يشتغل في إطارها. فكان العرفان موضوع عدد من العلوم الّتي اهتمّت بدراسة قدرات الدّماغ/الذّهن وأسسها البيولوجيّة الطّبيعيّة. وقد نشأت العلوم العرفانيّة cognitive sciences في منتصف الخمسينيّات من القرن العشرين. وقد جاءت هذه العلوم ثورة على السّلوكيّة behaviorism، فاتّجهت إلى بناء نظريّة جديدة للتّواصل تبحث في ذكاء الكائنات المُعَرْفَنَة ومظاهره وعمليّاته النّفسيّة. ومن العلوم العرفانيّة علم النّفس العرفانيّ Cognitive Psychology وعلم الأعصاب Neurology والذّكاء الاصطناعيّ Artificial intelligence والأنثروبولوجيا العرفانيّة Cognitive Anthropology واللّسانيّات العرفانيّة Cognitive Linguistics. واشتغال هذه العلوم متفاعلة هو الذي أنتج ما يسمّى بالنّموذج العرفانيّ. فأمّا الذّكاء الاصطناعيّ فيهتمّ بصناعة الآلة الذّكيّة والبرمجيّات الحوسبيّة الّتي تجعلها قادرة على أن تأتي ما يأتيه الذّهن البشريّ من المعالجات الذّكيّة. ومن مباحث هذا العلم معالجة اللّغة الطّبيعيّة Natural Language Processing (NLP) في إطار السّعي إلى وضع نظام تواصليّ بين الكائن البشريّ والآلة الذّكيّة. ويندرج ذلك ضمن البحث في القدرة التّمثيليّة لبرمجة أنظمة اصطناعيّة ذكيّة تحاكي قدرة الذّكاء الطّبيعيّ على إنتاج تمثيلات عن الواقع وتوظيفها في الفهم والتّفاعل مع المحيط والتّأثير الذّكيّ فيه. ويهتمّ مبحث الأنثروبولوجيا العرفانيّة بالثّقافة في علاقتها بالذّهن وما به يتمثّل الذّهن الأشياء والتّجارب والأحداث وينتج منها نظاما ثقافيّا. فتتّجه العناية فيه إلى التّمثيلات الثّقافيّة عند البشر وما يكون بينها من الاختلافات والفروق، إذ الثّقافة نظام عرفانيّ تولّده التّجربة الجماعيّة مع المحيط والكون. وممّا توصّلت إليه الأبحاث الأنثروبولوجيّة العرفانيّة هو أنّ البشر يختلفون في الإدراك والتّذكّر والمَقُولَة والاستدلال اختلافا ثقافيّا عرفانيّا، إذ لا يخلو العرفان من كونه يشتغل داخل منظومة اجتماعيّة وثقافيّة تسيّره. (انظر

الزّنّاد، ٢٠١٠: ٢١-٢٣) (Zannad,2010 : 21-23) ويمثّل علم النّفس العرفانيّ عماد العلوم العرفانيّة. فقد زامنت أبحاثه ما عرف بـ"الثّورة العرفانيّة" على السّلوكيّة. فالكائن الذّكيّ لا ينتظر المنبّهات الخارجيّة والمثيرات ليتفاعل مع الوضع بل هو يولّد مثيراته توليدا إيجابيّا داخليّا من خلال العمليّات الذّهنيّة العرفانيّة إدراكا وتحليلا وتأليفا. ويهتمّ علم النّفس العرفانيّ بدراسة الوظائف النّفسيّة العرفانيّة عند الكائن البشريّ كالتّمثيل والتّذكّر والاستدلال وحلّ المشاكل والانتباه. فهو الاختصاص الّذي يدرس العرفان من حيث هو جملة من النّشاطات والمسارات الذّهنيّة العليا الّتي ترتبط بالمعرفة معالجة وتمثّلا وتوظيفا. ويعتبر مبحث الذّاكرة من المباحث النّفسيّة الأساسيّة الّتي أثّرت في دراسة المعالجة اللّغويّة. وعمليّات الإدراك والتّمثّل والتّصوير الذّهنيّ mental imagery والتّذكّر والاستحضار هي ضروب من تعامل الكائن مع محيطه والأوضاع الّتي يوجد فيها وحاجاته حسب هذه الأوضاع. وتقوم المعالجة أثناء هذه العمليّات على رصيد الفرد من التّجارب المختلفة وعلى الجانب الذّاتيّ في تسجيل هذه التّجارب وتخزينها وانتظامها في الذّاكرة، ثمّ في تذكّرها واستحضارها. ومن أبرز المفاهيم الّتي قام عليها علم النّفس العرفانيّ مفهوم الخطاطة schema باعتبارها بنية معرفيّة مخصوصة لانتظام المعلومات في الذّاكرة، إذ التّذكّر محكوم عند الكائن العرفانيّ بخطاطات ذهنيّة من طبيعة ذاتيّة توجّه الذّاكرة أثناء عمليّة التّذكّر. وقد أثبتت المباحث النّفسيّة العرفانيّة جملة من الخصائص المتعلّقة بطبيعة العمليّات الذّهنيّة العرفانيّة. وهو أنّها دقيقة وذات نجاعة عالية. فهي الّتي تضمن للفرد تفاعله مع محيطه واستمرار التّواصل فيه. ومن خصائصها أنّها متوازية ومترابطة ومندمجة. (انظر الزّنّاد، ٢٠١٠: ٢٤-٢٧) (Zannad,2010 :24-27)

واللّسانيّات العرفانيّة علم من هذه العلوم يدرس اللّغة في إطار عرفانيّ واسع يتقاطع فيه ما هو بيئيّ وما هو جسديّ وما هو ثقافيّ اجتماعيّ. (انظر الزّنّاد، ٢٠١٠: 27-32) (Zannad, 2010 :27-32) وقد قرّر لايكوف (١٩٩٠) للدّرس اللّسانيّ العرفانيّ مبدأين منهجيّين أساسيّين كان لهما أثر على التّوجّه الإيبيستيمولوجيّ لهذا الدّرس. الأوّل هو مبدأ الالتزام بالتّعميم generalization commitment. وهو بمثابة الالتزام بالتّصوّر المنظوميّ للّغة والذّهن. فلا فصل بين منظومات النّحو. بل لا بدّ من الاعتبار بتفاعلها في إطار البنية العرفانيّة العامّة للذّهن. والثّاني هو مبدأ الالتزام العرفانيّ cognitive commitment. وهو أن يلتزم الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ بالمبادئ العامّة للدّرس العرفانيّ. فتساير النّتائج الّتي يتوصّل إليها والحقائق الّتي يقرّرها النّتائج والحقائق الّتي استقرّت في سائر العلوم العرفانيّة. (Lakoff, The Invariance Hypothesis: is Abstract Reason based on Image-Schemas?, 1990: 40-43) وقد استفادت اللّسانيّات العرفانيّة من العلوم العرفانيّة عامّة ومن علم النّفس العرفانيّ خاصّة. فالكثير من المفاهيم الّتي توظّفها الأبحاث اللّسانيّة العرفانيّة هي مفاهيم نفسيّة عرفانيّة من نحو الخطاطة والجشطلت gestalt والتّصوير الذّهنيّ والطّراز prototype والذّاكرة وما إلى ذلك. واستفادت كذلك من الذّكاء الاصطناعيّ والحوسبة ومن التّجارب الكلينيكيّة في مجال العلوم العصبيّة من خلال دراسة الجهاز العصبيّ ووظائفه والعمليّات المعقّدة الّتي يؤدّيها النّظام فيه وما إلى ذلك ممّا يدخل في باب مبادئ اشتغاله ومظاهر تعطّله وأسبابها. وقد مثّلت علوم الأعصاب أرضيّة أساسيّة للّسانيّات العرفانيّة حتّى استوى من ذلك

اختصاص دقيق يعرف باللّسانيّات العصبيّة neurolinguistics. ويمثّل مجال تقاطع بين اختصاصات شتّى من العلوم العرفانيّة خاصّة منها العلوم العصبيّة واللّسانيّات العرفانيّة وعلم النّفس العصبيّ neuropsychology والحاسوبيّة. وهو يدرس الأرضيّة البيولوجيّة العصبيّة للملكة اللّغويّة في الدّماغ البشريّ، ويهتمّ من ذلك بدراسة الآليّات والظّواهر الّتي توفّرها هذه الأرضيّة والّتي تتحكّم في عمليّات اكتساب اللّغة وفهمها وإنتاجها. وقد كان للّسانيّات العرفانيّة أثر في سائر الاختصاصات العرفانيّة الّتي استفادت كثيرا من نتائج الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ.

II- اللّسانيّات العرفانيّة والدّرس اللّسانيّ العربيّ:

II-١ التّفكير اللّغويّ وإشكال المنهج:

تقتضي دراسة اللّغة تطويع منهج البحث لمستلزمات الدّرس اللّسانيّ مهما يكن مستوى التّحليل اللّسانيّ بالنّسبة إلى الظّاهرة اللّغويّة ومهما يكن الفرع المختار من اللّسانيّات باعتبار المنهج. وتضمّ اللّسانيّات عدّة اختصاصات يمثّل كلّ واحد منها فرعا من العلم يهتمّ بجانب من الظّاهرة اللّغويّة موضوع الدّراسة. وللّسانيّات فروع بحسب ما يكون للظّاهرة اللّغويّة من صلات بظواهر أخرى وما تفرضه طبيعة الصّلة من مناهج في البحث. ومن أبرز الأمثلة على ذلك ما يعرف في اللّسانيّات باللّسانيّات الجغرافيّة geolinguistics واللّسانيّات الاجتماعيّة sociolinguistics الّتي تدرس تأثير الظّاهرة الاجتماعيّة على السّلوك اللّغويّ. وقد اتّخذت في إطار النّظريّة العرفانيّة اتّجاها نفسيّا يعالج السّلوك اللّغويّ من خلال ظواهر العرفان الجماعيّ. والتّمييز بين لسانيّات نظريّة ولسانيّات تطبيقيّة يرجع إلى وظيفة العلم وغاياته. وهذه قسمة رئيسة توازيها قسمة أخرى بحسب علاقة الموضوع بعامل الزّمان وتأثّره به. فما انفكّ اللّسانيّون منذ دوسوسّير يميّزون داخل هذا العلم بين اتّجاهين كبيرين هما الاتّجاه الآنيّ الّذي يهتمّ بالمظهر القارّ في لغة من اللّغات والاتّجاه الزّمانيّ الّذي يهتمّ بدراسة ما يطرأ على لغة من اللّغات من مظاهر التّحوّل عبر تاريخها.

ولئن كان المنهج في اللّسانيّات التّاريخيّة منهجا زمانيّا يمكن اعتماده مثلا في دراسة ظواهر من قبيل الإنْحَاء grammaticalization في اللّغات الطّبيعيّة فإنّ الزّمانيّة أو الدّياكرونيّة لا تخلو من توظيف المنهج الوصفيّ والمنهج المقارن، إذ يُحتاج في دراسة إنْحَاء بعينه في لغة من اللّغات إلى تعيين مختلف أطواره ووصف كلّ طور من هذه الأطوار، وقد يحتاج إلى المقارنة بين هذا الإنحاء في اللّغة المعنيّة ونظائره في لغات أخرى تنتمي إلى نفس الأسرة، وذلك لاستخراج خصائصه في اللّغة المنطلق منها وبعض ما ينتظمه من القيود الأسريّة على النّحو الّذي يمكّن من تصنيفه مقياسيّا داخل أسرته. ثمّ قد يحتاج إلى المقارنة بين ظاهرة الإنحاء تلك في الأسرة اللّغويّة المقصودة ونظائرها في أسر أخرى، وذلك للوقوف على بعض المبادئ الكلّيّة الّتي من شأنها أن تكون قد حكمت ذلك الإنحاء وما مرّ به من أطوار عبر تاريخ اللّغة الواحدة بعينها أو تاريخ الأسرة المنتمى إليها، والّتي من شأنها أن تكون قد انتظمت هذه الظّاهرة أو ما هو من قبيلها في اللّغات الطّبيعيّة. (انظر كروفت، الأنماطيّة والكلّيّات، ترجمة المكّي، ٢٠١٥: ٣٧٩-٤٤٣) (Croft, Typology and Universals, translated by Al-Mekki, 2015: 379-443)

لقد كان للنّظريّة اللّسانيّة النّفسيّة بشقّيها التّوليديّ والعرفانيّ أثر بالغ في ما آل إليه اليوم البحث في مجال اللّغات الطّبيعيّة في مختلف الاختصاصات والفروع. فالمواضيع والمسائل المقترحة والإشكاليّات المطروحة اليوم في البحوث اللّسانيّة الأكاديميّة منها وغير الأكاديميّة إن هي إلاّ ما تداولته النّظريّات اللّسانيّة النّفسيّة في المدرستين التّوليديّة والعرفانيّة. ومن مظاهر تطويع مناهج البحث اللّسانيّ لطبيعة النّظريّات المشتغل بها من حيث كان تطويعها ضرورة معرفيّة ومنهجيّة ما تشهده الرّسائل الأكاديميّة في اختصاص اللّسانيّات من تطوّر في مستوى نوعيّة المسائل المطروحة والمناهج والآليّات المقترحة في معالجتها. فقد شهدت البحوث اللّسانيّة الأكاديميّة في جامعاتنا العربيّة إجمالا منذ النّصف الثاني من القرن العشرين تحوّلا جذريّا في مستوى المنهج وأدوات التّحليل حتّمه تحوّل معرفيّ نوعيّ في مستوى المواضيع المطروحة والمسائل المعالجة. وهو تحوّل يفسّره بدوره انفتاح الدّرس اللّغويّ عندنا على اللّسانيّات الحديثة بمختلف أطوارها وتيّاراتها واتّجاهاتها. فاندرجت الدّراسات اللّسانيّة العربيّة بعد البنيويّة ضمن المشروع الكونيّ في دراسة اللّغات الطّبيعيّة. واتّجه الاهتمام إلى دراسة المكوّنات اللّغويّة باعتبارها مستويات للتّمثيل في إطار المنوال النّحويّ الّذي يختبر الباحث تطبيقا على العربيّة كفايتَه التّفسيريّة. واتّخذ الدّرس اللّسانيّ العربيّ الحديث تدريجيّا طابعا نفسيّا ما انفكّ أثره يقوى سواء في مستوى المسائل المطروحة للدّراسة والأهداف المرجوّة منها أم في مستوى المنهج والجهاز الاصطلاحيّ.

II-٢ النّظريّات التّصوّريّة وتشكّل الدّرس العرفانيّ في اللّسانيّات العربيّة:

II-٢-١ الواقعيّة التّجريبيّة وأسس النّظريّة اللّسانيّة العرفانيّة:

نتناول في هذا المبحث أبرز النّظريّات اللّسانيّة العرفانيّة الّتي اشتغلت بها المباحث اللّغويّة العربيّة. وهي نظريّات ذات أسس تجريبيّة. ويعتبر اندراج الدّرس اللّسانيّ العربيّ ضمن التّصوّر النّفسيّ المنظوميّ للّغة خطوة حاسمة في تأسيس أدبيّات لسانيّة عرفانيّة عربيّة. فقد اهتمّت الأبحاث بالنّظريّات النّفسيّة للمعنى اللّغويّ والمناويل اللّسانيّة العرفانيّة، وذلك بالتّركيز على التّصوّر conceptualization في مفهومه الواسع. (Langacker, Cognitive Grammar: A Basic Introduction, 2008: 27-30) ومن أبرز النّظريّات العرفانيّة المندرجة ضمن هذا المشروع العلميّ والّتي مثّلت مفاتيح للّسانيّات النّفسيّة العربيّة نظريّة الهندسة المتوازية Parallel Architecture أو الدّلالة التّصوّريّة لدجاكندوف Jackendoff الّتي تبلورت في عدد كبير من أعماله من أبرزها دجاكندوف (٢٠٠٢). وهي نظريّة تدرس الهندسة اللّغويّة من حيث هي وجه من الهندسة العرفانيّة العامّة، وتندرج في الأصل ضمن ما يعرف بنظريّات المعالجة الكلاميّة. (انظر الزّنّاد، ٢٠١٠: ٧٩-٩٤) (Zannad,2010: 79-94) ومن أبرز الباحثين الّذين تبنّوا مبادئ هذه النّظريّة الباحث محمّد غاليم. (انظر غاليم، الأنموذج المعرفيّ إطارا لاتّصال العلوم، بحث في وحدة المنهج وترابط الموضوعات، ٢٠٢١: ٧٧-١١٧) (Ghalim,Cognitive Paradigm as a Framework for Sciences Continuum, 2021: 77-117) ومن النّظريّات الّتي تبنّى الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ العربيّ مبادئها في إطار هذا المشروع كذلك نظريّة النّحو العرفانيّ Cognitive Grammar Theory كما تبلورت خاصّة في أعمال لانغاكر Langacker (١٩٨٧) و(١٩٩١) وغيرها، ونظريّة الاستعارة التّصوّريّة

Conceptual Metaphor Theory كما تبلورت خاصّة في الأعمال المشتركة للايكوف ودجونسون Lakoff & Johnson ومنها خاصّة لايكوف ودجونسون (١٩٨٠)، فضلا عن أعمال فرديّة لكلّ منهما نذكر منها خاصّة لايكوف (١٩٨٧) ودجونسون (١٩٨٧). وقد مثّلت نظريّة الاستعارة التّصوّريّة نظريّة محوريّة في ما راج في البلاد العربيّة من الدّراسات اللّسانيّة العرفانيّة ذات المنحى التّصوّريّ. ويضاف إلى ذلك عدد من النّظريّات التّأسيسيّة في الدّلالة العرفانيّة تأثّرت بها البحوث اللّسانيّة المختصّة، من أبرزها نظريّة المقُولة القائمة على المناويل العرفانيّة المؤمثلة Idealized Cognitive Models كما تبلورت في لايكوف (١٩٨٧)، ونظريّة دلالة الأطر Frame Semantics لفيلمور Fillmore (١٩٨٢) ونظريّة الأفضية الذّهنيّة Mental Spaces Theory كما تبلورت في عدد من أعمال فوكونياي Fauconnier منها (١٩٩٤)، ونظريّة المزج Blending Theory الّتي قامت على نظريّة الأفضية الذّهنيّة وتبلورت في عدد من الأعمال منها فوكونياي وتورنر Turner (١٩٩٥). وقد تخلّى هذا الاتّجاه عن أطروحات الاستقلاليّة والمركزيّة الّتي كانت سائدة في المرحلة التّوليديّة والّتي قامت على مبدإ الفصل بين مختلف المكوّنات والمنظومات، وهو ما مثّلته في الأنحاء التّوليديّة أطروحة مركزيّة الإعراب Syntactocentrism. وارتكز في المقابل على الاسترسال بين مختلف المكوّنات في مستوى النّظريّة على اعتبار اللّغة جزءا من المعالجة العرفانيّة العامّة وملكة لا تنفصل عن سائر الملكات العرفانيّة.

من الأسس المعرفيّة للأطروحة النّفسيّة التّصوّريّة الّتي قامت عليها النّظريّات الدّلاليّة العرفانيّة ما يعرف بالواقعيّة التّجريبيّة experientialism. وهي من المرتكزات الكبرى للوصف الطّبيعيّ في هذه النّظريّة. وقد واكبت النّظريّات النّفسيّة في العرفانيّات عموما هذا الانتقال الجذريّ من التّصوّر الموضوعيّ التّقليديّ القائم على اعتبار الذّهن نسقا رمزيّا مزوّدا بنظام حوسبيّ خوارزميّ يطبّقه في المعالجة على النّحو الّذي تطابق به الرّموز الموجودات في الواقع الخارجيّ، ولا اعتبار في ذلك بعلاقة الذّهن جوهرا بالجسد الحالّ فيه عرضا، إلى التّصوّر التّجريبيّ القائم على اعتبار الذّهن نتاجا للتّجربة وأسسها الحسّيّة الإدراكيّة المرتبطة بالجسد. (Lakoff, Women, Fire, and Dangerous Things: What Categories Reveal About the Mind, 1987: 266-268) فالكثير من المبادئ والمفاهيم والآليّات المعرفيّة والمنهجيّة الّتي يقوم عليها وصف الأبنية اللّغويّة وتحليل دلالاتها وموارد المعنى فيها هو من نتاج نظريّة العرفان المجسدن embodied. وهذه المفاهيم والمبادئ الّتي قوّت الكفاية الوصفيّة وزادت من نجاعة الكفاية التّفسيريّة للنّظريّة اللّسانيّة العرفانيّة هي الّتي تبرّر حظّ هذه النّظريّة من الطّبيعيّة. ومن المبادئ المجسدنة مبدأ الإسقاط الاستعاريّ، ومبدأ الإسقاط التّصوّريّ من حيث كان قدرة عليا منها المزج. فالاستعارة نظام تصوّريّ يختصّ به العرفان البشريّ المجسدن.

II-٢-٢ مبحث الاستعارة التّصوّريّة في الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ:

لقد استفادت الأبحاث اللّسانيّة الحديثة في البلاد العربيّة من نتائج النّظريّات اللّسانيّة النّفسيّة بشقّيها التّوليديّ والعرفانيّ. فاحتذى الدّرسُ اللّسانيّ العربيّ النّظريّاتِ اللّسانيّة العرفانيّة في الاستفادة من علم النّفس العرفانيّ. وصارت مفاهيم من قبيل "المقُولة" و"الجسدنة" و"الخطاطة" و"المنوال العرفانيّ" و"الإسقاط المجازيّ"

و"الطّراز" وما إلى ذلك مرتكزات معرفيّة ومنهجيّة أساسيّة في البحث اللّسانيّ الأكاديميّ العربيّ. وصار لنا تدريجيّا إسهام في الأدبيّات اللّسانيّة الكونيّة المعاصرة. ونتناول في هذا السّياق نظريّة الاستعارة التّصوّريّة في اللّسانيّات العربيّة نموذجا طرازيّا لتأثير اللّسانيّات العرفانيّة في التّفكير اللّغويّ العربيّ الحديث ودور الواقعيّة التّجريبيّة في تشكيل ملامح الدّرس اللّسانيّ العربيّ. وتعتبر نظريّة الاستعارة التّصوّريّة نظريّة مركزيّة في علم الدّلالة العرفانيّ لما لها من قيمة معرفيّة مأتاها كونها محور تقاطع للعديد من النّظريّات، منها خاصّة نظريّة الجسدنة ونظريّة المناويل العرفانيّة المؤمثلة ونظريّة الأفضية الذّهنيّة ونظريّة المقُولة. وهي نظريّة ذات أساس تجريبيّ يمثّله خاصّة انغراس مبادئ النّظريّة وتصوّراتها وفرضيّاتها في نظريّة العرفان المجسدن على نحو ما أشرنا إليه سابقا. وقد مثّلت نظريّة الاستعارة التّصوّريّة نظريّة محوريّة لدى الباحثين الأكاديميّين العرب المهتمّين بالحقل الدّلاليّ العرفانيّ. فاتّجهت العناية عندهم إلى مبحث الاستعارة في إطار الاشتغال بدلالة المجاز والبحث في آليّات إنتاجه. وقد وظّفوا هذا المبحث في دراسة حقول دلاليّة أخرى، وذلك في إطار ما توجبه طبيعيّة الوصف اللّسانيّ من تكامل بين مكوّنات النّحو ومستويات التّحليل.

لقد نشأ بمقتضى مبحث المجاز في النّظريّة الدّلاليّة العرفانيّة إطار معرفيّ جديد في اللّسانيّات العربيّة ينظر فيه إلى المجاز على أنّه من مظاهر قدرتنا على التّخييل. ومن مزايا الفكر الواقعيّ التّجريبيّ أن بنى حساب المعنى المجازيّ على فكرة الإسقاط التّخييليّ imaginative. فالاستعارة جزء من نظامنا التّصوّريّ متجذّر فيه ينتظم جميع مظاهر التّفكير وله انعكاس في البنية اللّغويّة. ونظامنا التّصوّريّ في جوهره ذو طبيعة استعاريّة تفسّر ارتباط تفكيرنا وتعاملنا وسلوكاتنا اليوميّة ارتباطا وثيقا بالاستعارة. (لايكوف ودجونسون، الاستعارات الّتي نحيا بها، ترجمة جحفة، ١٩٩٦: ٢١) (Lakoff & Johnson, Metaphors We live by, translated by Jahfa, 1996: 21) وقد شهد مبحث الاستعارة التّصوّريّة في الحقل الدّلاليّ العرفانيّ نشأة جهاز اصطلاحيّ ما انفكّت مفاهيمه في الاستعمال تلطُف ترجمة وتوظيفا. فاستثمر الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ العربيّ بالاستناد إلى النّظريّة البيانيّة في التّراث البلاغيّ مفهوم الإسقاط الاستعاريّ metaphoric projection والذّهن المجسدن والخطاطة وبنية التّناسبات ومناويلها الخطاطيّة وما إلى ذلك من مفاهيم الاستعارة التّصوّريّة ومبادئها في تحليل فلسفة التّخييل في المنوال المجازيّ الاستعاريّ العربيّ.

III- نحو درس إنسانيّ نفسيّ عربيّ:

III-١ اللّسانيّات العرفانيّة طريق العلوم الإنسانيّة إلى العرفان:

مثّل المشروع العلميّ العرفانيّ ثورة شملت مختلف الاختصاصات والحقول المعرفيّة، وكان لها أثر عميق في التّجربة الإنسانيّة الكونيّة بمختلف أبعادها. وقد تحوّل الفكر معها من تصوّر العقل جوهرا مفصولا عن الجسد إلى تصوّره حالاّ فيه يتأثّر بتجربته في المحيط. وبالنّظر إلى واقع البحث لدينا في حقل العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة نعتبر أنّ اللّسانيّات ما انفكّت تمثّل لهذه العلوم جسرا لولوج الثّورة العرفانيّة. ويمثّل الدّرس اللّغويّ الأكاديميّ في المؤسّسات الجامعيّة العربيّة اليوم مشروعا حضاريّا عامّا ذا أبعاد متعدّدة منها اللّسانيّ ومنها الفكريّ الإنسانيّ. وهو مشروع يقوم في تقديرنا على علم اللّسانيّات سواء أ كان مدخلا إلى

تعلّميّة اللّغة أم كان غاية في حدّ ذاته. فهو الموجّه في تدريس العلوم اللّغويّة القديمة كالنّحو والبلاغة. ثمّ هو يغزو بمناهجه ونتائجه على نحو مماثل الاختصاصات الأخرى. وقد كان لدخول اللّسانيّات العربيّة الطوّر النّفسيّ أثر متزايد في العلوم المدرّسة الأخرى سواء في إطار التّخصّص في لغة من اللّغات نحوها وفكرها وآدابها وحضارتها أو في إطار ما يدرّس من العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة. ونقدّر في ضوء واقع البحث اللّسانيّ العربيّ الرّاهن أن يبلغ الدّرس الإنسانيّ الأكاديميّ عندنا طورا تزول فيه الحواجز بين العلوم وتتقاطع فيه المعارف في حقل واحد يدرس ذكاء الكائن البشريّ في بعديه الفرديّ والجماعيّ. وتصير هذه الاختصاصات فروعا لعلم واحد هو "علم العرفان البشريّ"، وكلّ اختصاص لا يأخذ بمبادئ الانتماء إلى هذا العلم يعدّ خارج السّياق الرّاهن للمعرفة الكونيّة.

وقد مثّلت دراسة الأنماط الثّقافيّة والاجتماعيّة مبحثا يندرج ضمن حقل الأنثروبولوجيا العرفانيّة. ومازالت دراسة ظواهر المجتمع والإنسان في البلاد العربيّة توجّهها عموما المدارس قبل–العرفانيّة وتغلب عليها المناهج البنيويّة والمناهج التّاريخيّة والمناهج المقارنة والمناهج الوظيفيّة وما إلى ذلك. ومهما تكن نجاعة هذه المناهج في المرحلة الرّاهنة معرفيّا وتاريخيّا فإنّها لا مناص لها اليوم من أن تأخذ بأسباب الاندماج في النّموذج العرفانيّ فكرا ومنهجا ونتيجة. لقد قطعت اللّسانيّات العربيّة بالقياس إلى سائر العلوم الإنسانيّة شوطا في مجال البحث النّفسيّ العرفانيّ. وهو ما يرشّحها في تقديرنا لأن تكون نموذجا تحتذيه هذه العلوم وهي في طريقها إلى العرفان.

لقد أثبتت دراسة الأنماط الثّقافيّة في الدّراسات الأنثروبولوجيّة العرفانيّة أنّ ثقافة الأفراد ومعارفهم وتصوّراتهم وتمثّلاتهم للكون وكلّ ما يندرج ضمن تجربتهم العرفانيّة الجماعيّة تنتظمه خطاطات ومناويل ثقافيّة cultural models تؤثّر في الفكر والسّلوكات الاجتماعيّة وطرق التّفاعل مع الثّقافات الأخرى وتنعكس في السّلوك اللّغويّ. (Holland & Quinn, Cultural Models in Language and Thought, 1987: 3-5) وتلعب هذه الخطاطات الثّقافيّة أو ما يعرف في الأنثروبولوجيا العرفانيّة بمصطلحات من قبيل "سيناريو الأحداث" event scenario دورا أساسيّا في وصف الظّواهر المدروسة وتفسيرها عرفانيّا. فالثّقافة تجربة عرفانيّة جماعيّة متجذّرة في النّظام التّصوّريّ للأفراد والجماعات.

وتتنزّل دراسة الإنسان بأبعاده المجتمعيّة والفكريّة والدّينيّة واللّسانيّة ضمن البحث في ظواهر العرفان الجماعيّ. وتندرج العلوم الاجتماعيّة والإنسانيّة بمختلف مواضيعها وشواغلها وتخصّصاتها ضمن دراسة الذّكاء البشريّ وأرضيّته العصبيّة. ذلك بأنّ اختصاصا من قبيل علم الاجتماع العرفانيّ Cognitive Sociology يوازي اللّسانيّات العرفانيّة في أنّه اليوم لا يمكن أن يكون إلاّ بحثا في العرفان الاجتماعيّ لدى البشر، إذ هو يهتمّ بالأرضيّة الذّهنيّة لجملة العمليّات المسؤولة عن تشكّل الظّواهر الاجتماعيّة والقيود العرفانيّة الّتي تحكم تشكّلها. وقد زال عن علم من قبيل علم الاجتماع أن يكون في غنى عن اختصاصات كثيرة أخرى تتقاطع في مناهجها ونتائجها. ومن هذه الاختصاصات الأنثروبولوجيا العرفانيّة بما توفّره في دراسة المناويل الثّقافيّة من أدوات منهجيّة تستعيرها من علم النّفس العرفانيّ. وتمثّل الخطاطة والمناويل العرفانيّة مفهومين أساسيّين في صياغة المناويل الثّقافيّة والاجتماعيّة يعتمدهما علم النّفس الاجتماعيّ

العرفانيّ في دراسة المعالجات الذّهنيّة الّتي يقوم عليها العرفان الجماعيّ، والكيفيّة الّتي ينتج بها البشر معارفهم الاجتماعيّة المتّصلة بالأنظمة الّتي تسيّر حياة الأفراد وعلاقاتهم وتواصلهم داخل مجموعاتهم اللّغويّة والثّقافيّة والمنظومات القيميّة الّتي تحكم سلوكاتهم وتنظّم تفاعلهم داخل هذه المجموعات، وكذلك الطّرق الّتي يخزّنون بها هذه المعارف. ومن الاختصاصات المؤثّرة في علم الاجتماع كذلك اللّسانيّات الاجتماعيّة العرفانيّة Cognitive Sociolinguistics الّتي تصف التّحوّلات اللّسانيّة الطّارئة على اللّغة باعتبار العوامل الاجتماعيّة، وتبني مناويل اجتماعيّة انطلاقا من الظّواهر اللّسانيّة الموصوفة. فالتّغييرات اللّسانيّة تعكس تغييرا في النّمط الاجتماعيّ والثّقافيّ. واللّغة نظاما علاميّا رمزيّا وسيط أنثروبولوجيّ في دراسة الظّواهر الإنسانيّة بآثارها التّاريخيّة وأبعادها الحضاريّة والاجتماعيّة والثّقافيّة.

ويمثّل حقل الألوان واحدا من أبرز الحقول في الأنثروبولوجيا العرفانيّة. وتصنّف الدّراسة الأنثروبولوجيّة مقُوَلة الألوان والاختلافات الثّقافيّة في إدراكها وتقطيعها وتمثيلها. ذلك بأنّ اختلاف رمزيّة الألوان من ثقافة إلى ثقافة أخرى يرجع إلى الاختلافات المرتبطة بإدراك المتصوّر اللّونيّ وأسلوب مقُوَلته وتعيينه اللّسانيّ. وثراء التّجربة الإدراكيّة في مقُوَلة لون من الألوان في ثقافة من الثّقافات يوجّهه المعجم المبذول لتعيين تدرّجاته الطّيفيّة. وتختلف مقُوَلة اللّون الواحد من ثقافة إلى ثقافة أخرى اختلافا تدلّ عليه المقُوَلة اللّسانيّة. بل تختلف سَعة المقولة من لون إلى لون آخر في الثّقافة الواحدة. وما ذانك الاختلافان إلاّ ما تفسّره التّباينات الرّمزيّة الثّقافيّة الّتي توجّه السّلوك الإدراكيّ ودوره التّصنيفيّ للمقولة اللّونيّة. وهي لذلك أساس الدّراسة الأنثروبولوجيّة لموجّهات الإدراك وموضعة العرفان في صلب التّجربة الاجتماعيّة والثّقافيّة للمجموعات البشريّة. وفي هذا السّياق يمكن إدراج مبحث استعارات الألوان color metaphors في المباحث العرفانيّة النّفسيّة واللّسانيّة. ذلك بأنّ استعارات اللّون المتداولة لدى مجموعة لسانيّة وثقافيّة مّا لا تستند إلى الخصائص الفيزيائيّة للطّيف المستعار والأسس الإدراكيّة للإسقاط الاستعاريّ القائم بين اللّون مجالا مصدرا والدّلالات المجرّدة مجالا هدفا فحسب، بل هي تستند كذلك إلى تحليل الأسس الثّقافيّة للّون المستعار، إذ لا يمكن فهم الاستعارة وتأويلها خارج الإطار الثّقافيّ والرّمزيّ للّون. (انظر Löffler Color, Metaphor and Culture: Empirical Foundations for User Interface Design, 2017: 46-82)

إنّ منزلة الملكة اللّغويّة في هندسة الذّهن وأثرها في العرفان البشريّ يرشّحانها لتكون مدخلا طرازيّا لفهم سائر مظاهر العرفان البشريّ الّتي من أبرزها ما يتعلّق بالعرفان الاجتماعيّ. ولا يمكن إدراك هذا التّصافح اللّغويّ–الاجتماعيّ إلّا في إطار تصوّر منظوميّ للذّهن يتناول اللّغة وسائر الملكات في سياق الهندسة العرفانيّة العامّة لبنية الذّهن/ الدّماغ، وذلك عبر التّفاعلات التّصافحيّة الجارية بينها والّتي تختصّ بدراستها العلوم العرفانيّة بشقّيها الطّبيعيّ والإنسانيّ. وتمكّن دراسة التّصافحات بين الأنظمة العرفانيّة في الذّهن من فهم أعمق لبنية كلّ نظام من حيث مكوّناته وخصائصه التّصوّريّة وموارده وأرضيّته العصبيّة والمبادئ الّتي تنتظم اشتغاله وتقيّد تصافحاته والتّصوّرات الّتي تنظّم تصميمه في سياق الهندسة العرفانيّة الشّاملة.

III-٢ الخطاب وصناعة الاستعارة:

III-٢-١ من الاستعارات ما قَتل:

لقد استقطب الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ ظواهر إنسانيّة عالجها في باب تحليل الخطاب. ولئن كانت الغاية لسانيّة في الأصل تتمثّل في بيان الآليّات العرفانيّة الّتي تسيّر إنتاج الخطاب والمفاهيم والمبادئ الّتي تنتظم نموّه التّصوّريّ فإنّ المنطلقات النّظريّة والمنهجيّة المتوسّلة في تحقيق هذه الغاية وما أوجبته من معالجة للنّصوص في سياقاتها التّداوليّة اعتبارا بخصوصيّتها الفكريّة قد وجّهت الدّراسة إلى مآرب أخرى تمثّلت أساسا في تنزيل معالجة الخطاب في سياق العرفان الاجتماعيّ. (انظر الزّنّاد، النّصّ والخطاب: مباحث لسانيّة عرفنيّة، ٢٠١١: ٧-١٤) (zannad, Text And Discourse: Cognitive Linguistic Researches, 2011:7-14). فالتّمثيلات الاجتماعيّة في الذّهن من قبيل المعارف المشتركة والمعتقدات والأيديولوجيّات والتّصوّرات والأفكار وما إلى ذلك تشتغل باعتبارها صفيحة ضروريّة بين الخطاب الّذي ينتجه أفراد المجموعة اللّسانيّة والثّقافيّة الواحدة من جهة والأبنية المجتمعيّة الكبرى من جهة ثانية. (Van Dijk, Discourse and Cognition in Society, 1993: 107) وما اقتداء اللّسانيّات العربيّة اليوم باللّسانيّات الغربيّة في الاهتمام بالعرفان الاجتماعيّ والعرفان الإنسانيّ بوجه عامّ إلاّ دليل على ما قدّرناه لهذا العلم من دور في توجيه المباحث الإنسانيّة لمواكبة المشروع النّفسيّ الكونيّ وتطوير مناهجها العلميّة في هذا الاتّجاه.

وقد مثّلت نظريّة الاستعارة التّصوّريّة مبحثا مركزيّا في الدّرس اللّسانيّ الأكاديميّ العربيّ ما انفكّ أثره يمتدّ إلى حقول أكاديميّة مجاورة. وتفسّر مركزيّة النّظام الاستعاريّ في العرفان البشريّ عامّة والعرفان اللّغويّ خاصّة الأثر العميق لنظريّة الاستعارة التّصوّريّة في الأدبيّات العرفانيّة الغربيّة. فقد مثّلت الاستعارة أداة لفهم الواقع والنّفاذ إلى البنى العميقة للوقائع الاجتماعيّة والثّقافيّة المعيشة. فحوّل لايكوف الاستعارة من نظريّة لفهم العرفان الاستعاريّ إلى وسيلة لفهم العرفان الاجتماعيّ. وتمثّل المقالات الثّلاث الّتي كتبها لتحليل الخلفيّة الاستعاريّة لـ"الحرب" نموذجا طرازيّا لتوظيف المعرفة اللّسانيّة في قراءة الوقائع الإنسانيّة وفهمها، وذلك بكشف الأنساق الذّهنيّة الّتي توجّهها. فأمّا المقالة الأولى فقد صدرت سنة (١٩٩١) بعنوان :Metaphor and War The Metaphor System Used to Justify War in the Gulf، وترجمها عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم إلى "الاستعارة والحرب". وقد كتبت بمناسبة الحرب الأولى على العراق. وأمّا المقالة الثّانية فقد صدرت سنة (٢٠٠١) بعنوان Metaphors of Terror وترجمت إلى "استعارات الرّعب". وقد كتبت بمناسبة أحداث سبتمبر (٢٠٠١). وأمّا المقالة الثّالثة فقد صدرت سنة (٢٠٠٣) بعنوان Metaphor and War, Again وترجمت إلى "الاستعارة والحرب من جديد". وقد جاءت في سياق أحداث الحرب الثّانية على العراق.

لقد عالج لايكوف في كلّ مقالة النّسق الاستعاريّ الّذي قامت عليه الواقعة موضوع التّحليل. فعالج في المقالة الأولى الاستعارات الكبرى الّتي حكمت حرب الخليج والّتي بها برّرت الإدراة الأمريكيّة هذه الحرب. فجاءت مقالته قراءة في البنية الاستعاريّة الّتي اتّكأ عليها الخطاب السّياسيّ الأمريكيّ في تحليل

العلاقات الدّوليّة والسّياسة الخارجيّة الّتي تعتمدها إدارته. وقد كشف تحليل استعارات الحرب في هذه المقالة عن تهافت الموقف الأمريكيّ وما يقوم عليه من تناقضات داخليّة فضحت نوايا الغزاة أمام شعوبهم وأمام العالم. وذلك في مقابل ما أظهره الموقف العربيّ حسب لايكوف من قيم بطوليّة اختزلتها قيمتان بارزتان هما الكرامة والأخوّة. وقد عالج لايكوف في المقالة الثّانية النّسق الاستعاريّ الّذي نسج خطاب الإدارة الأمريكيّة في التّعامل مع أحداث سبتمبر (٢٠٠١). وحلّل في المقالة الثّالثة النّسق الاستعاريّ الّذي برّر به خطاب بوش الابن الغزو الأمريكيّ الثّاني للعراق. فنفذ إلى النّسيج الاستعاريّ الذي تحكّم في هذه الحرب. وبيّن من خلاله أنّ الحرب الحقيقيّة الّتي خاضها الخطاب السّياسيّ الأمريكيّ كانت حربا لبناء الاستعارات التّصوّريّة والأطر الذّهنيّة وتحويلها إلى جزء من الاشتباك العصبيّ في الدّماغ يتحقّق فيزيولوجيّا على هيأة دورة عصبيّة. وهذه حرب أخطر من الحرب الّتي شنّت على العراق في أرض الواقع. (لايكوف، الاستعارة والحرب من جديد، ترجمة جحفة وسليم: حرب الخليج أو الاستعارات الّتي تقتل، ٢٠٠٥: ٧٢) (Lakoff, Metaphor and War, Again, translated by Jahfa & Salim, in: The Gulf War Or Metaphors That Kill, 2005: 72) لقد هيّأت أمريكا لحروبها خطابات سياسيّة كانت الاستعارة السّلاح الفعليّ فيها، إذ "لم تدخل الإدارة الأمريكيّة الحرب على العراق بالسّلاح فحسب، بل دخلتها أيضا بترسانة استعاريّة." (جحفة وسليم، حرب الخليج أو الاستعارات الّتي تقتل، مقدّمة التّرجمة، ٢٠٠٥: ٥) (Jahfa & Salim: 2005: 5) The Gulf War Or Metaphors That Kill,

إنّ النّسق الاستعاريّ المتحكّم في الحرب متمكّن من العرفان الاجتماعيّ يسيّر الأفكار ويبرّر المواقف ويقرّر مصائر الأمم "لأنّ الاستعارات ...إن هي عزّزتها القنابل قد تقتل." (لايكوف، الاستعارة والحرب، في: حرب الخليج أو الاستعارات الّتي تقتل، ٢٠٠٥: ٤٥) (Lakoff, Metaphor and War, in: The Gulf War Or Metaphors That Kill, 2005: 45) لقد أثبت لايكوف من خلال هذه المقالات الثّلاث أنّ الاستعارة جزء أساسيّ من نشاطنا التّصوّريّ تبنين تجاربنا وفهمنا للأشياء. فهي في قلب العرفان العامّ لدى البشر. وهي إذ تستعمل في صناعة الخطاب وتوجيه النّسق الفكريّ تشكّل آليّة مركزيّة في بَنْيَنَة العرفان الجماعيّ للمجموعات البشريّة وأداة مؤثّرة في حياتهم الاجتماعيّة والسّياسيّة والثّقافيّة والاقتصاديّة ومحرّكا قويّا للوقائع التّاريخيّة ومصائر الشّعوب.

III-٢-٢ الاستعارة التّصوّريّة والخطاب العربيّ:

ذهب عدد من الباحثين العرب الذين لهم اهتمام خاصّ باللّسانيّات العرفانيّة مذهب لايكوف في توظيف اللّسانيّات في فهم الوقائع وقراءة المجريات وتحليل الظّواهر الإنسانيّة منطلقين في ذلك من الخطاب. ونورد في هذا السّياق نموذجين، الأوّل مقالة للباحث الأزهر الزّنّاد بعنوان "اللّسانيّات في قلب المسيرات، الشّعارات خطابا طقوسيّا". (الزّنّاد، اللّسانيّات في قلب المسيرات، الشّعارات خطابا طقوسيّا، ٢٠١٣) (Zannad, Linguistics at the Heart of rallies: Slogans as Ritual Speech, 2013) وقد كتبت هذه المقالة في سياق الثّورات العربيّة عموما والثّورة التّونسيّة خصوصا. وقد اتّخذ الباحث اللّسانيّات العرفانيّة مدخلا لتحليل شعارات المسيرات. فكانت مفاهيم من قبيل "الإطار" و"الفضاء" و"الاستعارة" و"المزج"

و"الجسدنة" مداخل "نفسـلسانيّة" لتحليل الشّعارات خطابا إذ تسيّره المسيرات أطرا يتّخذ طابعا طقوسيّا بموجبه تكتسب الشّعارات قوّتها التّأثيريّة وتكتسب المسيرات سلطتها التّاريخيّة. وقد بيّن الزّنّاد بناء على قيمة الإطار العرفانيّ في تحليل الخطاب أنّ المسيرات أفضية وأطر تداوليّة وطقوسيّة، (انظر الزّنّاد، ٢٠١٣: ٢-١٠) (Zannad, 2013: 2-10) وأنّ الشّعارات إذ تؤطّرها المسيرات خطاب تصوّريّ استعاريّ مزجيّ مجسدن. (انظر الزّنّاد، ٢٠١٣: ١٠-٣٢) (Zannad, 2013:10-32) وانتهى إلى أنّ المسيرات أطر خطابيّة جماعيّة، وأنّها "طقس عبور جماعيّ بما يتوفّر فيها من تحوّلات في طبيعة المواقف الجماعيّة وأنماط الوعي الجماعيّ" (انظر الزّنّاد، ٢٠١٣: 36) (Zannad, 2013:36)، وأنّ شعاراتها خطاب تلعب المسيرة من حيث هي مقام اجتماعيّ وسياسيّ وثقافيّ دورا حاسما في تأطير ما ينتظمه من آليّات ومناويل تصوّريّة تحكم نسيجه اللّغويّ وبنيته الدّلاليّة–التّداوليّة. فتكون الشّعارات أعمالا لغويّة ذات قوّة إنجازيّة جماعيّة توجّهها مكوّنات الإطار الطّقوسيّ من حيث هي جزء من العرفان الجماعيّ. (انظر الزّنّاد، ٢٠١٣: ٣٢-٣٥) (Zannad, 2013:32-35) وقد بيّن الباحث مركزيّة الجسد في المسيرات من حيث كان منشئا عمليّا وقوليّا للإطار وحاملا أيقونيّا وأداة ترميزيّة ناجعة. فيتحوّل "الجسد المُعَرْفَن" أو "العرفان المجسدن" من نظام تصوّريّ يحكم نشاطنا الفكريّ الاستعاريّ وسلوكنا اللّغويّ إلى بنية ذهنيّة جماعيّة مشتركة تحكم السّلوكات الاجتماعيّة وتنظّم عمليّة إنتاج الخطاب. وتصير المفاهيم النّفسيّة اللّسانيّة أدوات قراءة وآليّات بحث في ظواهر الإنسان. لقد وجب أن نفكّر اليوم في ما وراء أنساق الثّقافة والفكر من الآليّات النّفسيّة العرفانيّة والمحرّكات الفيزيولوجيّة العصبيّة المسؤولة عن تحويل مكوّنات النّسق إلى عرفان جماعيّ.

والنّموذج الثّاني الّذي نسوقه في هذا الإطار هو كتاب "الاستعارات التّصوّريّة وتحليل الخطاب السّياسيّ" للباحث محمّد الصّالح البوعمراني. (البوعمراني، الاستعارات التّصوّريّة وتحليل الخطاب السّياسيّ، ٢٠١٥) (Al-Bou-Omrani, Conceptual Metaphors and Political Discourse Analysis, 2015) وقد اعتمد فيه مداخل لسانيّة عرفانيّة تمثّلت في نظريّة الاستعارة التّصوّريّة ونظريّة المزج التّصوّريّ وأسس تحليل الخطاب بين النّظريّة العرفانيّة والنّظريّة التّداوليّة. وقد صاغ منها منهجا إجرائيّا في تحليل نماذج من الخطاب السّياسيّ العربيّ تمثّلت في خطب لزعماء وساسة نذكر منهم على سبيل المثال الحبيب بورقيبة وجمال عبد النّاصر وياسر عرفات. فانتهج نهج لايكوف في بيان نجاعة الاستعارة في خطاب السّياسيّين وأثرها في توجيه الرّأي العامّ وتشكيل تصوّرات الشّعوب وتقرير مصائرها. وعالج الأبعاد الأيديولوجيّة للاستعارة في الخطاب السّياسيّ العربيّ وما يشتغل في نسيجها من مكوّنات العرفان الجماعيّ ورموز الهويّة الثّقافيّة كالدّين والمعتقدات والقيم والأعراف والأخلاق منتهيا إلى بيان قوّتها التّأثيريّة في هذا النّوع من الخطابات.

خاتمة:

تناولنا في هذا البحث إشكاليّة المنهج في المباحث النّفسيّة العرفانيّة الّتي جعلنا منها إطارا إبيبيستيمولوجيّا لدراسة الأسس المعرفيّة والمنهجيّة للدّرس اللّسانيّ النّفسيّ. فانطلقنا من النّظريّة التّوليديّة. ثمّ نظرنا في اللّسانيّات العرفانيّة علما في إطار ما يعرف بالنّموذج العرفانيّ. فبحثنا في أطوار الشّقين والعوامل

المنهجيّة الّتي قام عليها ترقّي الكفاية التّفسيريّة للنّظريّة. وفي هذا السّياق عرضنا المراحل الأساسيّة الّتي مرّ بها الدّرس اللّغويّ العربيّ الحديث والإشكاليّات المنهجيّة الّتي طرحها مروره من الطّور التّقليديّ إلى أطوار ساير فيها مناهج المدرسة البنيويّة ثمّ مناهج المدرسة النّفسيّة. فبيّنّا أنّ اللّسانيّات العربيّة الحديثة قد تمكّنت من أن تواكب خروج النّظريّة اللّسانيّة الحديثة من الرّؤية الموضوعيّة الكلاسيكيّة إلى الواقعيّة التّجريبيّة وتندرج ضمن هذا المشروع العلميّ الكونيّ الّذي تمثّله العلوم العرفانيّة. وفي هذا الإطار اعتبرنا مبحث الاستعارة التّصوّريّة من النّماذج البارزة في البحث اللّسانيّ العرفانيّ العربيّ. ولا نرى ريادة اللّسانيّات العربيّة في فتح حقول العرفان وتأسيس درس لسانيّ يلتزم بمبادئ الدّرس العرفانيّ العامّ وتصوّراته ونتائجه إلاّ دليلا على ما ذهبنا إليه من أنّ اللّسانيّات تمثّل اليوم وسيطا حقيقيّا بين علوم العرفان وعلوم الإنسان. وهي تحقّق وساطتها في مستويين. الأوّل هو أنّها تقدّم للعلوم الإنسانيّة نموذجا نفسيّا عرفانيّا طرازيّا يمكن الاعتماد عليه سواء في المستوى المعرفيّ المتعلّق بالمحتوى النّظريّ أم في المستوى المنهجيّ المتعلّق بالجانب الإجرائيّ. والثّاني هو أنّ المباحث اللّسانيّة العرفانيّة قد غزت مجالات من العلوم الإنسانيّة وطالت ظواهر هي أقرب إلى مجال اختصاص هذه العلوم، أو هي اليوم تدرس في إطار اختصاصات ضيّقة ودقيقة تتفرّع إليها اللّسانيّات النّفسيّة بحكم تصافحات العرفان اللّغويّ مع سائر مظاهر العرفان البشريّ. وهذا في تقديرنا ما يجعل اللّغة مدخلا ناجعا إلى دراسة العديد من مظاهر السّلوك الذّكيّ لدى الكائن البشريّ، ويجعل الدّرس اللّسانيّ العرفانيّ تجربة ميدانيّة لسائر العلوم الإنسانيّة مثّلت نظريّة الاستعارة التّصوّريّة نموذجا لها دلّ على أنّه لا فصل في العرفان بين اللّسان والإنسان.

المصادر

- البوعمراني، محمّد الصّالح (٢٠١٥)، *الاستعارات التّصوّريّة وتحليل الخطاب السّياسيّ*، الطّبعة الأولى، عمّان، دار كنوز المعرفة.
- الزّنّاد، الأزهر (٢٠١٠)، *نظريّات لسانيّة عَرَفَنيّة*، الطّبعة الأولى، صفاقس، دار محمّد علي الحامّي للنّشر، بيروت، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، الجزائر، منشورات الاختلاف.
- الزّنّاد، الأزهر (٢٠١١)، *النّصّ والخطاب: مباحث لسانيّة عَرَفَنيّة*، الطّبعة الأولى، صفاقس، دار محمّد علي الحامّي للنّشر، منّوبة، مركز النّشر الجامعيّ.
- الزّنّاد، الأزهر (٢٠١٣)، *"اللّسانيّات في قلب المسيرات، الشّعارات خطابا طقوسيّا"*، SSRN، حرّر في 01/11/2013، ونشر في 04/11/2013، في:

https://ssrn.com/abstract=2348854 أو

https://dx.doi.org/10.2139/ssrn.2348854

- غاليم، محمّد (٢٠٢١)، *الأنموذج المعرفيّ إطارا لاتّصال العلوم: بحث في وحدة المنهج وترابط الموضوعات*، الطّبعة الأولى، تونس، الدّار التّونسيّة للكتاب.

- الفاسي الفهري، عبد القادر (٢٠٠٠)، *اللّسانيّات واللّغة العربيّة: نماذج تركيبيّة ودلاليّة*، الطّبعة الرّابعة، الدّار البيضاء، دار توبقال للنّشر.
- كروفت، ويليام (٢٠٠٢)، *الأنماطيّة والكلّيّات*، العنوان الأصليّ: *Typology and Universals*، ترجمة سميّة المكّي، تونس، المركز الوطنيّ للتّرجمة، دار سيناترا، ٢٠١٥.
- لايكوف، جورج (٢٠٠٥)، *حرب الخليج أو الاستعارات الّتي تقتل*، ترجمة عبد المجيد جحفة وعبد الإله سليم، الطّبعة الأولى، الدّار البيضاء، دار توبقال للنّشر.
- لايكوف، جورج ودجونسون، مارك (١٩٨٠)، *الاستعارات الّتي نحيا بها*، ترجمة عبد المجيد جحفة، الطّبعة الأولى، الدّار البيضاء، دار توبقال للنّشر، ١٩٩٦.

References

- Al-Bou-Omrani, M.S. (2015), *Conceptual Metaphors and Political Discourse Analysis*, first edition, Amman, dar Kounouz Al-maarifa.
- Al-Fessi Al-Fehri, A. (2000), *Semantics and Arabic Language: Syntactic and Semantic instances*, fourth edition, Casablancan, Toubkal editions.
- Chomsky, N. (1971), *Aspects de la Théorie Syntaxique*, titre original: Aspects of the Theory of Syntax, Cambridge, USA: The MIT Press, 1965, traduction de Jean-Claude Milner, Paris: Editions Du Seuil.
- Chomsky, N. (1987), *La Nouvelle Syntaxe, Concepts et Conséquences de la Théorie du Gouvernement et du Liage*, titre original: Some Concepts and Consequences of the Theory of Government and Binding, USA: The MIT Press, 1982, traduction de Lélia Picabia, présentation et commentaire d'Alain Rouveret , Paris: Editions Du Seuil.
- Croft, W. (٢٠٠٢), *Typology and Universals*, translated by Al-Mekki S., Tunisia, National Center for Traduction, Dar Sinatra, 2015.
- Fauconnier, G. & Turner, M. (1995), *Conceptual Integration and Formal Expression, Metaphor and Symbolic Activity*, Vol. 10, N° 3, pp. 183-203.
- Fauconnier, G. (1994), *Mental Spaces Aspects of Meaning Construction in Natural Language*, Cambridge: Cambridge University Press.
- Fillmore, CH. J. (1982), *Frame semantics*, In: Linguistics Society of Korea (ed.): Linguistics in the Morning Calm, Seoul: Hanshin, pp. 111-138.
- Ghalim, M. (2021), *Cognitive Paradigm as a Framework for Sciences Continuum*, first edition, Tunis, Maison Tunisienne du Livre.
- Holland, D. & Quinn, N. (1987), *Cultural Models in Language and Thought*, Cambridge: Cambridge University Press.
- *Jackendoff*, R. (2002), *Foundations of Language: Brain, Meaning, Grammar, Evolution*, Oxford: Oxford University Press.
- Johnson, M. (1987), *The Body in the Mind: The Bodily Basis of Meaning, Imagination, and Reason*, Chicago: The University of Chicago Press.
- Lakoff, G. & Johnson, M. (1980), *Metaphors we Live By*, Chicago: The University of Chicago Press.

- Lakoff, G. & Johnson, M. (1980), *Metaphors We Live By*, translated by Jahfa A., first edition, Casablancan, Toubkal editions, 1996.
- Lakoff, G. (1987), *Women, Fire, and Dangerous Things*: *What Categories Reveal About the Mind*, Chicago: The University of Chicago Press.
- Lakoff, G. (1990), *The Invariance Hypothesis: is Abstract Reason based on Image-Schemas*? », Cognitive Linguistics, 1(1), pp. 39-74.
- Lakoff, G. (1991), «*Metaphor and War: The Metaphor System Used to Justify War in the Gulf*», Viet Nam Generation Journal, Vol. 3, N°3.
- Lakoff, G. (2001), *« Metaphors of Terror »*, University of Chicago Press, 16/09/2001, in:
- Lakoff, G. (2003), « *Metaphor and War, Again* », ALTERNET, 17/03/2003, in:
- *Lakoff, G. (2005), The Gulf War Or Metaphors That Kill, translated by Jahfa A. & salim A.I, first edition*, Casablancan, Toubkal editions.
- Langacker, R.W. (1991), *Foundations of Cognitive Grammar*, Vol.2: *Descriptive Applications*, California, Stanford: Stanford University Press.
- Langacker, R.W. (2008), *Cognitive Grammar: A Basic Introduction*, New-York, Oxford: Oxford University Press.
- Löffler, D. (2017), *Color, Metaphor and Culture: Empirical Foundations for User Interface Design*, Thesis for: Doctoral, ResearchGate, 06/12/2017, in:
- Van Dijk, T.A. (1993), *Discourse and Cognition in Society*, In: Crowley, D. & Mitchell, D. (eds.), *Communication Theory Today*, Oxford: Pergamon Press.
- Zannad, L. (2010),*Cognitive Linguistic Theories*, Sfax, Mohamed Ali Hammi Editions, Beirut, Arab Scientific Publishers, Alger, Editions El-IKhtilef.
- Zannad, L. (2011), *Text And Discourse: Cognitive Linguistic Researches*, Sfax, Mohamed Ali Hammi Editions, Mannouba, *Centre* de *Publication Universitaire.*
- Zannad, L. (2013), *Linguistics at the Heart of rallies: Slogans as Ritual Speech*, 04/11/2013 in: file:///C:/Users/user/Downloads/DLoeffler_Color_Metaphor_and_Culture_PhD_2017%20(1).pdf https://dx.doi.org/10.2139/ssrn.2348854 https://ssrn.com/abstract=2348854
-Langacker, R.W. (1987), *Foundations of Cognitive Grammar*, Vol1:*Theoretical* Prerequisites, California, Stanford: Stanford University Press.